

فريضة الحجّ في نظر الإمام

حيدر حسن

«فريضة الحجّ لها بين الفرائض الإلهية خصائص متميّزة، ولعلّ الجوانب السياسية والاجتماعية لهذه الفريضة تفوق جوانبها الأخرى، مع أنّ جانبها العباديّ ذو خصائص متميّزة أيضاً. على المسلمين الملتزمين الذين يجتمعون مرّةً في كلّ عام على صعيد المواقف الشريفة ويؤدّون واجباتهم الإسلامية في هذا المجتمع العامّ والحشد الإلهيّ بمعزل عن الامتيازات، وبمظهر واحد، ودون اهتمام بما يميّز بينهم من لون أو لغة أو بلد أو منطقة، وبأبسط المظاهر المادية، وباندفاع نحو المعنويّة والوفود على الله... عليهم أن لا يغفلوا عن الجوانب السياسيّة والاجتماعيّة لهذه العبادة».

الإمام الخميني رحمته الله

اعتاد المسلمون على ممارسة الحج ممارسة عبادية جافة لا تنعكس لها أية آثار على شخصياتهم وسلوكهم إلا نادراً، كما لم يستغل هذا الملتقى الواسع والشامل لكل الشعوب الإسلامية - يوماً ما - من قبل المسلمين ولا سيّما العلماء المتواجدين في الحج ل طرح القضايا والمشاكل المشتركة بينهم أو التفكير بوضع الحلول المناسبة لها. بل صيروا منه سفرة سياحية لزيارة بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي وآله الأطهار مع الإتيان بالواجبات والمستحبات الواردة في هذه العبادة فقط. أمّا التدخّل في الشؤون الإسلامية فهو من ضمن الخطوط الحمر التي لا يحقّ للحاج تجاوزها؛ لذلك افتقدت هذه العبادة روحها والغاية من تشريعها.

مفهوم الحجّ عند الإمام

«إنّ الحجّ هو أفضل ملتقى للتعارف بين أبناء الشعوب الإسلامية. إذ يتعرّف المسلمون على إخوانهم في الدين من جميع أنحاء العالم، ويجتمعون في ذلك البيت الذي يخصّ جميع المجتمعات الإسلامية، وأتباع إبراهيم الحنيف، ويرجعون إلى بيتهم الأول من خلال وضع كلّ القوميات والألوان والعناصر جانباً، ويعرضون على العالم كلّ صفاء الأخوة الإسلامية، وآفاق انسجام الأمة المحمدية، من خلال رعاية الأخلاق الكريمة، وتجنّب الجدل والتمحلات».

إنّ الحجّ عند الامام - مفهوماً - يتجاوز حدود الممارسة العبادية والطقوس التقليدية إلى دائرة أوسع. فالحجّ - برأيه - مناسبة نادرة وفرصة ثمينة حيث تلتقي أعداد كبيرة من مسلمي العالم بما في ذلك العلماء والمفكرّون استجابة لأمر الله - تعالى - لأداء مناسك الحجّ، ومثل هذه الفريضة لا يمكن أن تحقّقها أيّ قوّة أخرى.

يقول الإمام عليه السلام: «اجتماع الحجّ أعظم اجتماع إذ لا تستطيع أيّ دولة أن تخلق مثله، والله - تبارك وتعالى - أوجده لكي يجتمع المسلمون دون أن تنفق الدول أموالاً طائلة لتحقيق ذلك، ودون مشقّة وتعب، ولكن لا يستفاد من ذلك مع الأسف».

لذا يجب أن تستغل هذه المناسبة من قبل المسلمين؛ لتدارس أوضاعهم العامّة والخاصّة بعد أن يتعرفوا على بعضهم بعضاً.
وقد أناط الإمام مهمّة تبني عقد الاجتماعات واللقاءات وإدارة الندوات إضافة إلى تعبئة المسلمين الوافدين إلى الديار المقدّسة وتوعيتهم، أناطها بالعلماء والمرشدين، فخاطبهم قائلاً:

«يجب على العلماء الذين يشاركون في هذا الاجتماع - من أي بلد كانوا - أن يتبادلوا الآراء وينشروا بيانات تستهدف توعية الشعوب، وينشروها بين المسلمين في مهبط الوحي، كما يجب عليهم نشرها بين أبناء بلادهم بعد الرجوع إليها. وليطلبوا فيها إلى زعماء البلدان الإسلاميّة أن يجعلوا الأهداف الإسلاميّة نُصَبَ أعينهم، فلا يختلفوا فيما بينهم، ويتفكروا في التخلّص من براثن الاستعمار».

ويضيف ﷺ:

«على العلماء الأعلام، والخطباء العظام، أن يُنبهوا المسلمين على مسائلهم السياسيّة وواجباتهم الخطيرة».

كما طالب الإمام أن تكون هذه الاجتماعات محرّرة من القيود، بعيدة عن الاضطهاد والإرهاب والممارسات التعسّفية؛ لأنّ المسلمين - كما يقول ﷺ - المضطّهدين في بلادهم سياسياً يجب أن تعطى لهم الفرصة للتعبير عن آرائهم وإبداء وجهات نظرهم بالقضايا الراهنة. فهو يقول:

«بما أنّ مسلمي العالم لا يستطيعون تبيان مصائبهم والمظالم التي يفرضها عليهم حكّامهم المسلّطون عليهم بسيف الإرهاب والسجن والإعدام، فيجب أن يُسمح لهم بأن يعرضوا مظلوميّتهم ويبيّنوا مصائبهم في حرم الأمن الإلهيّ بكامل الحرّيّة ليذكروا باقي المسلمين بالسعي لإنقاذهم؛ لذا نحن نصرّ (بقوّة) على أن يعتبر المسلمون أنفسهم في بيت الله الحرام وحرم الأمن الإلهيّ

أحراراً، في الأقل، من جميع قيود الظالمين، وأن يعلنوا البراءة مما يبغضون في استعراض مهيب ويستثمروا كل الوسائل للخلاص».

فلسفة الحجّ في نظر الإمام

يقول رحمه الله:

«إن أهم أسباب ما تعانيه المجتمعات الإسلاميّة هي أنّها لم تدرك الفلسفة الحقيقيّة للكثير من الأحكام الإلهيّة. والحجّ - بما يشتمل عليه من أسرار وعظمة - لا زال يُعامل كعبادة جامدة من حركات غير مثمرة، لأنّ من الواجبات الكبرى على المسلمين أن يتوصلوا إلى فهم حقيقة الحجّ. فما هو الحجّ؟ ولماذا يجب عليهم أن يخضّصوا جزءاً من إمكاناتهم الماديّة والمعنويّة من أجل أدائه؟!»

كلّ ما قدّمه الجهلة أو المغرض من أيّ المرتزقة تحت عنوان (فلسفة الحجّ) لا يعدو إطار تصويره بأنّه عبادة جماعية وزيارة سياحية، فما علاقة الحجّ بالإجابة عن تساؤلات: كيف يجب أن نحيي؟ وكيف يجب أن نجاهد؟ بأنّة صورة نواجهها عالم الأسمانية والشيخوخة؟ وما علاقة الحجّ بواجب اقتزاع حقيقته المسلمين والمحرومين من الظالمين؟ ما علاقة الحجّ بيزور أن يظن المسلمون كقوة كبرى فائقة في العالم؟ وما شأنهم بتحريض المسلمين المتضاض على الحكومات العميلة؟ وهل هو إلاّ سفرة سياحة لزيارة الكعبة المدينة لا أكثر؟ هذا كما قدّمه أولئك».

انتهج المستكبرون في البلاد الإسلاميّة سياسة معادية مهيبة على تستهدف صرف أبناء الأمة الإسلاميّة عن دينهم وسلامتهم عن طريق تلمس المدارس الفكرية الماديّة والتشادات المنحرفة، فعبدوا بواسطة الحملات الماديّة المكثفة إلى أفراغ الإعلام من محقّوا وروحه، ويسمونه أحكامه ومبادئه حجّ، أصبح الدين في أذهانهم مجرّاه محروس لا علاقة لها بحياة الإنسان، وقد تقلّد

وقد وظّف الطّاعة طاقات كبيرة لتحقيق ذلك، كما استعانوا ببعض المثقفين دعاة الحداثة والمعاصرة المرتبطين بالشرق أو الغرب، والمتظاهرين بالتطرّف الدينيّ السلفيّ لتنفيذ مشاريعهم وخطّتهم.

لكن بالرغم من جميع تلك المحاولات لم تتمكن تلك الجهود أن تحقّق كامل أهدافها طالما كان في الأمّة رجال يقظون كالإمام القائد ﷺ يتمتعون بدرجة عالية من الوعي والثقافة، فلا تنطلي عليهم خطط الاستعمار والأعبيّه. والحجّ هو أحد المفردات التي عمل عليها الاستكبار العالمي بواسطة عملائه طويلاً حتّى تمكّن من أن يصيرّ منه طقساً عبادياً يحظر خلاله ممارسة أيّ نشاط آخر خلافاً لما كان عليه المسلمون الأوائل، وبعيداً عن روح التشريع الإسلاميّ. لذا يقول الإمام بهذا الصدد:

«لقد كان هذان الحرمان مركزين للعبادة والسياسة الإسلاميّة. فيهما ترسم خطط الفتح، وتحدّد مناهج السياسة في عهد الرسول ﷺ وهكذا بقيا فترة طويلة بعد رحيله.

بيد أنّ سوء الفهم وأغراض القوى الكبرى ودعايتها الواسعة جعلت المشاركة في الشؤون السياسيّة والاجتماعيّة، التي هي من أهمّ واجبات المسلمين، داخل الحرمين الشريفين جريمة.

...هل هتاف هؤلاء ضدّ أميركا وإسرائيل - عدوّتي الله ورسوله - جريمة؟».

إنّ فصل السياسة عن الدين من الأمور التي يرفضها الإمام ﷺ لأنّه يعتقد أنّها جزء منه. وما لم يتمكن الدين من ممارسة دوره على الصعيد السياسيّ يفقد حركيّته وفاعليّته. كما يعتقد أنّ التجمّعات العباديّة تنطوي في ذاتها على عطاء سياسيّ؛ فلا يجوز أن تجرّد عنه وإلاّ فقدت محتواها ولم تحقّق أهدافها. يقول ﷺ:

«كثير من الأحكام العباديّة تصدر عنها معطيات اجتماعيّة وسياسيّة. فعبادات الإسلام عادة توأم سياسته وتدابيره الاجتماعيّة.

صلاة الجماعة، مثلاً، واجتماعات الحج والجمعة تحقق - بالإضافة إلى مالها من آثار خلقية وعاطفية - نتائج وآثاراً سياسية.

استحدث الإسلام هذه الاجتماعات وندب الناس إليها، وألزمهم ببعضها حتى تعم المعرفة الدينية وتعم العواطف الأخوية وتماسك عرى الصداقة والتعارف بين الناس، وتنضج الأفكار وتنمو وتتلاقح، وتبحث المشاكل السياسية والاجتماعية وحلولها.

المسلمون الأوائل كانوا يجنون من جماعاتهم وجمعاتهم وأعيادهم ومواقف حجهم أحسن الثمار».

لذا فالإمام عليه السلام يتوقّر على فلسفة خاصّة بالحجّ تعتمد على أساس إسلامي رصين. وفيما يلي استعراض موجز لفلسفة الحجّ على ضوء توجهاته وبياناته: أولاً: العمل على إرساء دعائم الوحدة الإسلامية، وتوظيفها لخدمة المصالح الإسلامية المشتركة، وتكريسها لطرح الحلول المناسبة للقضايا الراهنة، واستغلالها لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية. يقول الإمام عليه السلام:

«علينا أن نستثمر موسم الحجّ ونجني منه أطيب الثمار في الدعوة إلى الوحدة، وإلى تحكيم الإسلام في حياة الناس كافة. علينا أن نبحث مشاكلها ونستمدّ حلولها من الإسلام. علينا أن نسعى لتحرير فلسطين وغيرها».

«في هذا الاجتماع المقدّس (الحجّ) لا بدّ من تبادل الآراء في القضايا الأساسية للإسلام أولاً، وتبادل الآراء في القضايا والمشاكل الخاصة للبلدان الإسلامية، وليتعرّف الحجاج على ما يحلّ بإخوانهم المسلمين في بلدانهم على أيدي الاستعمار وعملائه. ولا بدّ لأهل كلّ بلد في هذا الاجتماع المقدّس أن يعرفوا المسلمين في العالم بمشاكلهم الداخلية».

ثانياً: تعميق روح العبودية لله تعالى، من خلال ممارسة مناسك الحجّ ممارسةً عباديةً واعية تتجاوز حدود المظاهر والأفعال المرئية، وترقى بالمرء إلى أعلى

درجات سلم التكامل الأخلاقي والعقائدي، وتدفعه نحو بناء مجتمع تحكمه المبادئ والقيم الإسلامية. يقول الإمام عليه السلام:

«الحج هو منطلق رسالة بناء مجتمع المستقبل المطهر من الرذائل المادية والمعنوية كافة».

«مناسك الحج هي مناسك الحياة برمتها».

«الحج تنظيم وتدريب وتأسيس لهذه الحياة التوحيدية... والحج ميدان لتجلي عظمة طاقات المسلمين واختبار قلوبهم السامية والسنوية والحج كالقرآن... مبارك ينتفع منه الجميع، ولكن العلماء والمتبحرين والعارفين بالأمّة الإسلامية إذا فتحوا قلوبهم لبحر معارفه - ولم يرهبوا الغوص والتعمق في أحكامه وسياساته الاجتماعية - فإنهم حاصلون من أهداف هذا البحر على لئالي الهداية والوعي والاصطفاء والرشاد والتحرر أكثر من غيرهم، ولارتووا من

زالال الحكمة والمعرفة إلى الأبد».

«إن الحج أظل مناسبة تدعو المؤمن للتفكير؛ لأنها تثار أمامه الكشوف من تساؤلات بشأن الأهدى الداليل إلى جدلية هذه العبادة الشاقّة المكلفة، وتدفعه بلورة أجوبة مقنعة بشأنها».

ماذا الطواف في البيت الحرام؟ لماذا السعي بين الصفا والمروة؟ لماذا الوقوف في عرفات والمشعر الحرام؟ لماذا البسات في منى؟ لماذا يرمي الشيطان؟ وعندما يقف المؤمن على أرض مكة يتوجب عليه أن يسأل مع نفسه: ماذا حطم إبراهيم الاصنام؟ ولماذا حطم محمد صلى الله عليه وآله الاصنام؟ وما هي دعوى رسول الله؟ وهل نحن على نهج سائرون؟ وماذا ينبغي علينا الآن فعله؟».

يقول الإمام عليه السلام:

«حقيقة الأمر أن الحج هو من أجل اقتراب الإنسان من البيت وارتباطه به، وليس الحج حركات وأوراداً وألفاظاً وحسب، بل الكلام والألفاظ والحركات

السنة السادسة - العدد الثاني عشر - ١٤٢٠ هـ

الشكلية الجامدة لا يمكن أن يصل الإنسان إلى الله .

الحجّ منبع المعارف الإلهية، فيجب البحث فيه عن المحتوى الحق للسياسة الإسلامية لجميع شؤون الحياة» .

«على شعوب الأمة الإسلامية من أيّ قومية كانت أن تصبح إبراهيمية؛ لتلتحق بصفّ أمة محمد ﷺ وتذوب فيه فتصبح معه يداً واحدة» .

«الملايين يذهبون كلّ عام إلى مكة وتطأ أقدامهم الأرض التي وطئها أقدام النبي الأعظم ﷺ وإبراهيم وإسماعيل وهاجر، ولكن ما من أحد يسائل نفسه: مَنْ هما إبراهيم ومحمد ﷺ؟ وماذا فعلا؟ وماذا كانت أهدافهما؟ ولأيّ شيء دعوانا؟ وكأنّ هذا هو الشيء الوحيد الذي لا ينبغي لنا التأمل فيه» .

«الإسلام دينٌ عبادته سياسة، وسياسته عبادة. والآن إذ يجتمع المسلمون من شتى بقاع الأرض حول كعبة الآمال لحجّ بيت الله، والقيام بالفرائض الإلهية، وعقد هذا المؤتمر الاسلامي الكبير، في هذه الأيام المباركة وفي هذه البقعة المباركة... يتوجّب على المسلمين، الذين يحملون رسالة الله - تعالى - أن يستوعبوا المحتوى السياسي والاجتماعي للحجّ إضافة إلى محتواه العبادي» .

«إنّ الطواف حول بيت الله يعلمنا أن لا نطوف حول بيت إله غير الله، ورجم الشيطان يرمز لرجم شياطين الإنس والجن» .

«فحينما ترجمون الشيطان عاهدوا ربكم على طرد شياطين الإنس والقوى الكبرى من بلادكم الإسلامية العزيزة» .

ثالثاً: البراءة من المشركين .

«ولاشكّ في أنّ الحجّ بغير روح ولا حركة، ولا انتفاضة... ولا براءة من المشركين... ولا وحدة... ودون أن يؤدي إلى تدمير الكفر والشرك... ما هو بحجّ» .

«على المسلمين، إذن، تقع مهمة إحياء الحجّ والقرآن الكريم وإعادةتهما إلى ميادين حياتهم. وعلى الباحثين الملتزمين أن يلتقوا في اليمّ بكلّ الخرافات

والضلالات التي يطرحها فقهاء البلاط ، وذلك بأن يتصدوا بجدّ لإيضاح أسرار الحجّ وفلسفته الحقّة» .

«إنّ إعلان البراءة من المشركين يعتبر من الأركان التوحيدية والواجبات السياسيّة للحجّ . ويجب أن تقام في أيام الحجّ بكلّ صلابة وعظمة مسيرات ومظاهرات كبرى . وعلى الحجّاج المحترمين - إيرانيين وغير إيرانيين - أن يشاركوا فيها بتنسيق تامّ... ويطلقوا بجوار بيت التوحيد صرخة البراءة من مشركي الاستكبار العالمي وملحديهم وعلى رأسهم أمريكا المجرمة ، وأن لا يغفلوا عن إظهار عدائهم وتذمّرتهم من أعداء الله وأعداء خلقه» .

إن كلمة التوحيد وشعار المسلمين (لا إله إلا الله) عبارة عن معادلة متوازنة وثابتة لا تقبل التلاعب ولا الالتواء . أحد طرفيها: إثبات الألوهية لله وحده . وطرفها الآخر: نفي كلّ الآلهة الأخرى .

ويترتب على هذه المعاملة الصارمة أننا عندما نؤمن بالطرف الأوّل يجب أن نكفر بالثاني . وعندما ندين للأوّل نترك الثاني . وعندما نحب الأوّل نتبرأ من الثاني . وهذه هي حقيقة العبودية لله تعالى كما يقول الإمام عليه السلام:

«ترى هل تحقيق الديانة هو غير إعلان المحبة والإخلاص للحقّ وإعلان السخط والغضب والبراءة من الباطل؟ يستحيل أن يتحقّق خلوص حبّ الموحّدين بغير إعلان الاستياء من المشركين من أعداء الله وأعداء خلقه» .

ولما كان الحجّ عبارة عن تكريس وتأكيد العبودية لله سبحانه تعالى - قولاً وعملاً - فيجب إذن في قبال ذلك أن نكرّس ونؤكّد البراءة من كلّ المشركين والشياطين والطواغيت قولاً وعملاً؛ لذا ففي الوقت الذي نطوف فيه في البيت ، ونقف في عرفات لدعاء الله يجب أن نذهب لنزج الشيطان ، ونعلن براءتنا منه ، وعندما نلبي بأعلى أصواتنا: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ...» يجب أن نرفع أصواتنا عالياً لإعلان البراءة من أعدائه؛ لكي تبقى (لا إله إلا الله) حيّة في قلوبنا وتتفاعل في

نفوسنا، وعلى ضوءها نتخذ موقفنا، ونرسم منهج سياستنا، ونخطط لمستقبلنا، ونضع الحلول لمشكلاتنا.

إذ لم تكن أطروحة الإمام (إعلان البراءة من المشركين) في موسم الحج عن طريق التظاهرات والمسيرات، وعقد الندوات والمؤتمرات أجنبية عن روح الاسلام، ولا غريبة على تشريعاته، وإنما السياسات العملية هي التي عملت على قلب الحقيقة ودأبت على تمويهها حتى صار إعلان البراءة من المشركين مخالفاً يتنافى مع مناسك الحج ويؤدي إلى المساس بقداسة بيت الله الحرام!!

مع أن الحج - كما مرّ - ليس إلا تظاهرة عامة دعا لها الله (جلّ وعلا):
﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ...﴾ لتأكيد العبودية الخالصة لله - تعالى - وإعلان البراءة من الشرك والمشركين.

وهنا يقول الإمام الخميني رحمته الله:

«وأي بيت هو أفضل من الكعبة - البيت الآمن، الطاهر... بيت الناس - لنبد كل أشكال الظلم والعدوان والاستغلال والرقّ والدناءة واللاإنسانية قولاً وفعلاً؟ وتحطيم أصنام الآلهة تجديداً لميثاق: ﴿الْسُنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾... وذلك إحياءً لذكرى أهم وأكبر حركة سياسية للرسول صلّى الله عليه وآله؟»

«فإذا لم يعلن المسلمون البراءة من أعداء الله في بيت الناس وبيت الله، فأين يستطيعون إعلان ذلك؟ وإذا لم يكن الحرم والكعبة والمسجد والمحراب خندقاً ومتراساً لجنود الرحمن، المدافعين عن الحرم، وحرمة الأنبياء، فأين هو مأمنهم وملجؤهم إذن؟».

«وعلى أية حال، فإن إعلان البراءة في الحج هو تجديد العهد بالجهاد، وتربية المجاهدين لمواصلة الحرب ضد الكفر والشرك وعبادة الأصنام، وهو لا يقتصر على الشعارات بل يتعداها لتعبئة جنود الله وتنظيمهم أمام جنود إبليس، وبقية الأبالسة، والبراءة هذه تعتبر من المبادئ الأولية للتوحيد».

الحج وآثاره التربوية والاجتماعية والسياسية..

حسين علاوي

أقاماه لم يكن رصاً للأحجار وتعلية
للجدار.. فجهر بالدعاء وهما يبنيان
القبلة، أن يقبل الله منهما ما عملا وما
جهدا في طاعة أمره وإبلاغ وحيه.. ثم
رغبا إليه حين انتهاء من الرفع والتشييد
أن يعلمها مناسك العبادة التي وضع لها
هذا البيت فعلمها، فكانت الكعبة أول
بيت للعبادة وضع في الأرض، ثم أمر
إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج،
وضمن الله سبحانه أن يستجيب الناس
للنداء.. فأقبلوا على الحج مشاةً
وركبانا يحملون الأجساد والقلوب

الحج ركن من أركان الإسلام
الخمسة، التي ثبتت أصولها بالكتاب
والسنة، وقد عرّف بتعاريف متعدّدة
أجمعها وأشملها ما جاء في كتب الفقه من
أنّ الحج هو قصد مكة لأداء عبادة
الطواف والسعي والوقوف بعرفة،
وسائر المناسك استجابة لأمر الله
وابتغاء مرضاته..

والكتب المقدّسة تذكر أنّ أول من
بنى البيت، وأقام أركان الكعبة هما
إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام بعد أن
أوحى إليهما.. وأدركا أنّ البناء الذي

وبانعدامها ينعدم الوجوب، منها الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة.. والشروط الثلاثة الأولى من شروط التكليف في كل عبادة.

وأما الشرط الرابع فقد زال بزوال العبودية.. بعد أن جاء الإسلام مرغباً في العتق.. أما الشرط الأخير فهو الاستطاعة وهي القدرة المادية مصداق قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

والحج هو مظهر من مظاهر مجاهدة الفرد لميوله الشخصية.. وطموحاته التي قد تتعارض والمصالح العامة.. فالزبي الذي يرتديه الحاج بصرف النظر عن مركزه الاجتماعي يدخل في شكله البسيط ولونه الملائكي في عملية عميقة جذورها عميم نفعها ألا وهي عملية توحيد فصائل المجتمع؛ لأن المجتمع الإسلامي هو مجتمع لا يعترف بالقوميات.. ولا بالطبقيات.. ووحدة الأديعة.. ووحدة المشاعر.. وتجمع المسلمين في مكان واحد هي من الأهداف الكبرى التي تهدف شريعة القرآن إلى زرعها في رحاب المجتمع

والتقوى.. ثم ظلت تلك الاستجابة تزداد مع كل عام.. حتى أقر مؤذن الرسالة الخاتمة أن تستمر الفريضة بعد أن تتضح معالمها من الإيهام الذي غشيها.. وتتنفي أكارها من الرين الذي أصابها.. فكانت الدعوة الأولى في دائرة أبي الأنبياء، والدعوة الثانية في دائرة خاتمهم.. فأسمعت الأولى قوم إبراهيم في حدود البلدان التي هاجر إليها.. واتبعه من أهلها.. أما الثانية فقد أسمعت الخليفة كلها.

«وخط الإمامان الأولان مشرعا للحنفية الأولى، وقاما لها في أرض العرب إرهاساً للمطلع الذي تطلع منه دعوة الختام التي صرخت في العرب والعجم، للحفاظ على ما استفاض عن الإمامين من المسالك والمناسك في قول الرسول ﷺ: «قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من أبيكم إبراهيم»^(١).

ولاشك ان في سيرة الحج إلى مكة منذ إبراهيم إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام - لم ينكرها التاريخ بل أكدها قولاً وفعلاً.. وللحج شروط بوجودها يجب،

الأكبر حتى يكون مجتمعاً متّحداً عقيدة وسلوكاً وأخلاقاً.. مجتمعاً يتفاوت فيه الناس بحسب أعمالهم وأهدافهم من وراء أدائهم لتلك الأعمال.

الحج مؤتمر عالمي

وبالإضافة إلى كونه منهجاً تربوياً يغرس في نفس المسلم المشاعر الإنسانية العالية، والأخلاق الحميدة الفاضلة، فهو أيضاً لقاء يكتسب منه المسلم ثقافة اجتماعية، وفوائد مسلكية، ومنافع مادية قد تنجر عنها بركة عظيمة، وفوائد جمّة لشعوب إسلامية بكاملها، إذ قد تعقد فيه المعاهدات التجارية، كتبادل البضائع ممّا ينشط الاقتصاد الإسلامي..

ولم يكن هذا ليقع لولا تعارف المسلمين بسبب اجتماعهم المبارك لأداء هذه الفريضة المباركة. ذلك أنّ في تعارف الشعوب الإسلامية وتبادلها الآراء وطرحها لمشاكلها ما يقرب شقّة الخلاف إن كان هناك خلاف، وإذا انعدم الخلاف عمّ التفاهم ووحدت الغايات واتحدت المناهج.

إلا أن الحديث عن العبادات

والشعائر وما يتعلّق بها غدا حديثاً ناقصاً ومملاً لدى الكثيرين.. لأنه توقف أو كاد عند عتبة الحلال والحرام، والثواب والعقاب، أو تحت مظلة الشكليات التي تقيم هيكل العبادة دون أن تبتّ الروح فيها.. ممّا أورت تصوّراً خاطئاً عن العبادة أشبه ما يكون بالطقوس في الأديان الأخرى..

ومن هنا فإن إعادة قراءة هذه العبادات والشعائر قراءة تستوحي أهدافها التربوية.. وأبعادها النفسية.. ومفرداتها العملية.. ووظيفتها التربوية والاجتماعية والسياسية والتنظيمية.. أصبحت ضرورة يلح الواقع عليها.

وممّا يؤكّد هذه الأهمية أنها تمثّل ركناً أساسياً من أركان النهوض بالشخصية المسلمة بما تركه من آثار في النفس الإنسانية، وبالمجتمع الإسلامي بما تملّيه من قواعد تنظيمية وتكافلية.. فمعرفة الصورة المقنعة المتوازنة بين الطرح المتكرّر والمفرط لشكلياتها.. وبين الجانب الغائب ما وراء هذه الشكليات جدير بأن يعزّز المسير في اتجاه الوعي الإسلامي

النهضوي المتوازن والمتكامل.

الحجّ ثورة على العادة..

الحجّ ثورة موظّفة لمعنى يتجلّى من وراء تقنينها بالسلوكيات والشكليات والرمزيات.. ثورة ضد التقليد الذي يسير عليه الإنسان بجميع أشكاله ليعيش نمطاً جديداً من الحياة في أيام، فحمل من إيجاباتها ما يثقل وزنه في سلوكه ووجدانه..

فالحظة الأولى فيه لحظة تخليه الواعي المنهج عن اللباس والطيب وأسباب الزينة وملذّات الدنيا.. وليس رداءً وإزاراً أبيضين غير مخيطين يمثّلان الاستسلام لله طواعية قبل الاستسلام له كراهية عند الموت في لباس شبيه.. إقبال على الله بفتح صفحة جديدة من العمل محفوفة بالأمل الذي لا يلغي من حسابه ساعة الموت، الذي هو صفحة جديدة أيضاً ولكن من حساب قديم..

والمناسك التالية لهذه الخطوة تأكيد لها، وتسديد لمستقبلها المنشود في حياة جديدة منتظمة قائمة على منهج الله، وتكرّس في نفس صاحبها روح الخير والبذل والعطاء من خلال ما يغدقه

الحاج في سبيل هذه الفريضة ومناسكها، وتعوّد على النظام والجديّة والمسؤولية في الحياة بالترامه بنظام دقيق شامل لجميع شؤون الفرد لباساً وطعاماً وجسداً وزماناً ومكاناً ومجتمعاً و...

إنّها «حركة شمولية ذات أبعاد تربوية حقيقية استعملت فيها أساليب الحسبة والتجريدية والممارسات التجريبية بكل ما تعني من عمق في قدرة الحج على التغيير بطريقة تخلو من كلّ السلبات في العملية التربوية على العموم.. فالحج فريضة متعدّدة الجوانب والأطر: اجتماعية، تربوية، سياسية، علمية، عقلية، وجدانية، بدنية، فنية..» (٢).

الحج ترسيخ لقيم التواضع والمساواة

إنّ الحجّ تدريب عملي للمسلم على المبادئ الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام، فقد أراد دين الله أن لا تكون تعاليمه ومبادئه مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعبادته وشعائره ربطاً وثيقاً، حتى تكون سلوكاً تطبيقياً

والبيت الحرام ﴿من دخله كان آمناً﴾..
 أمانٌ وسلامٌ فريد في نوعه، يشمل
 الطير والصيد والنبات فضلاً عن
 الإنسان، وإن المسلم حين يُحرم بالحج
 يظل فترة إحرامه في سلامٍ حقيقي مع
 من حوله، فلا يجوز له أن يقطع نباتاً أو
 يقلب شجرة كما لا يجوز أن يذبح
 حيواناً صاده غيره أو يرمي هو
 صيده في الحرم أو خارجه..
 هكذا يرى من خلال مناسك الحج
 وشأنه خدمة ما ينص المجتمع
 البشري على اختلاف ألوانه ولغاته
 وبلاذه دون تفرقة لا عرق.. ولقد
 أعطت الإسلام رسالةً عالمية الفتيه قوّة دفع
 كبيرة لا يمكن أن تمرّك المجتمع
 إسلامياً أساسياً، تحررها
 لفراسة والبيعة المحيية من جملة
 فيوتاريخية وراهنة. حالت دورة الحج
 إلى وقوعه حكومة بنظم فكرية
 أساسية مسيطرة على المجتمع
 الإسلامي، هجرت الشريعة الإسلامية
 منذ زمن بعيد، وحطت رحالها في
 أرض التبعية الشاملة لنظم التسلط
 العالمية!

في حياة المسلم وفي علاقته مع
 الآخرين.

«فن خلال الإحرام - مثلاً - الذي
 هو ركن من أركان الحج - وحيث
 تشمل الجميع صحوة للنفس البشرية
 التي قد يستولي عليها الكبرياء والخياء
 في بعض الأحيان وتجمع بها
 الشهوات، أن يفكر هي برمة في
 أصلها وتذكرك لا يظل أحد أهدأ
 إلا بالتسبي والعل الطالع).
 إن سبهاك وعندما مجرد من
 الثوب الأبيض المخطط ويحرم
 عليه أن يمس طيباً مسيحياً
 لباساً يلبس ال الناس مالا وجاهاً
 هناك سبهاك وسبهاك
 أقوى العباد عظم الدم
 الحجّ تربية للوعي الانسانية
 إن الحجّ من مجرد فريضة تنمي
 النفس وتعصم السر من سبهاك
 عنوان للأخوة الإنسانية العامة.. إن
 الإسلام بتعاليمه لا يدع الفرد ينطوي
 على أنانية مُفرّقة.. بل تطبعه بشرائعه
 وآدابه على الإيثار والحبّ..
 «فأرض الحج هي البلد الحرام،

المواجهة وما ينطوي عليه من مشاكل شتى سيشكل عنواناً لمرحلة طويلة قادمة»^(٦).

الحجّ عبادة وسياسة

لقد دفعت النظم الهاجرة للشريعة، في مواجهة تصوّر الإسلامى للحج، مقولة أنّ الحج ممارسة عبادية لا ارتباط لها بالسياسة.. وقبل علماء الأمة هذا التحدي، عبر تقديمهم لتصور إيجابى متكامل يؤكّد استناداً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كون الحج جزءاً لا يتجزأ من دورة المجتمع الإسلامى العامة وبالتالي ميزان الأمة وقضاياها.. فإنه من الطبيعى، أن يحمل كلّ ركن من أركان الأمة هموم الأمة في أحشائه بهذا القدر أو ذاك وبشكل أو بآخر.. أي أنّ الحج كركن أساسى لا بدّ له من أن ينفّث على سماء الأمة وقضاياها السياسية المختلفة..

«فتحول الحج في قائمة معطيات الثورة الإسلامى العظمى، ليحتل مكانة خاصة. إنه تحوّل، لا فى الشكل المعين لمناسك هذه الفريضة الإلهية الكبرى، بل فى إحياء هذه المناسك وفى إثراء هذا

لقد أوصلت التجربة الإسلامى الفتية المجتمع الإسلامى المعاصر بأصول الشريعة فى أكثر من نقطة كانت عصور الظلم السابقة ونظم القهر الحديثة قد قطعتها وأحلت مكانها منطقتها وأفكارها وسياساتها التى مزّقت الشخصية الإسلامى على أكثر من صعيد، وصادرت هوية الأمة فى أكثر من موقع»^(٥).

إنّ انفتاح الحالة الإسلامى الفتية على فضاء البشرية التوحيدىة، فتح لها آفاق حركة شاملة فى مواجهة ظلم الآخرين.. وغفلة الذات، وذلك عبر ما أحيته من قيم ومعايير غطّت جوانب أساسية من شبكة العلاقات الناظمة والموجهة لسلوك المسلمين. لكن ذلك وضعها مباشرةً فى مواجهة التيارات الفكرية والسياسية المناهضة لتطلّعات المجتمع الإسلامى ولقضاياها العادلة.

«وإذا كانت الحالة الإسلامى قد تمكّنت من فرض نفسها كتيّار جديد ومجدّد ومكتمل البنيان فى مواجهة تيارات العجز والقصور التى تقودها نظم التبعية والانحطاط، فإن واقع

وثررة هذا المفهوم الشامل تتمثل في تحييش الأمة نحو أعدائها.. وتربية أبنائها على المناعة والصلابة في مقابل التحديات التي تعصف بها..

فأكثر حجّاج بيت الله الحرام مصابون بالغفلة كما وصفهم الإمام الخميني قائلاً: «لا يمكن للمسلمين أن يحيا حياة مشرّفة إلا بالإسلام، لقد أضاعوا إسلامهم، لقد عدنا نجهل الإسلام بسبب إichاءات الغرب وتشويهاته، ولذلك فإنّ المسلمين يجتمعون كلّ عام في مكة المكرمة، لكنهم لا يدرون ماذا يفعلون...»^(٨).

ولو استثمر المسلمون عطاء الحج السياسي كما يقول الإمام: «لكان ذلك كفيلاً بتحقيق استقلالهم، لكننا مع الأسف أضعنا الإسلام.. لقد أبعدوا الإسلام عن السياسة فقطعوا رأسه وسلموا لنا بقيته، وجرونا إلى الوضع الذي نعيشه اليوم، وما دام المسلمون على هذه الحالة فلن يستعيدوا مجدهم..»^(٩).

ويقول الإمام الراحل رحمه الله: «كثير من الأحكام العبادية تصدر عنها

الركن الإسلامي الركين بالمعنى والاتجاه.. في هذا التحوّل، عاد الحج ليكون مرّة أخرى مؤتمراً عظيماً عبدياً- سياسياً وتجمعاً لإعلان البراءة من المشركين..»^(٧).

فركّز الإمام الخميني رحمه الله في أكثر نداءاته التي كان يطلقها في كلّ موسم حج على ضرورة إعلان البراءة من المشركين كأمر وجوبي لا بدّ منه لكلّ فرد موحد؛ لأنه يعتبر من الأركان التوحيدية والواجبات السياسية للحج.. ويجب أن تقام في أيّام الحج بكلّ صلابة وعظمة..

وطلب من الحجّاج - الإيرانيين وغير الإيرانيين - المشاركة فيها وإطلاق صرخة البراءة من المشركين والملحدين في جوار بيت التوحيد.. حيث إنّ هذه البراءة تهدف إلى وضع الحواجز النفسية والاجتماعية والعقائدية بين معسكر الموحّدين من جهة، ومعسكر المشركين من جهة أخرى.. ويعتبر الإمام أنّ إعلان البراءة هو المرحلة الأولى من الجهاد، ومواصلته هي من المراحل الأساسية لواجبنا..

قوة.. يقول الإمام الخميني رحمته الله: «من واجبات المسلمين في تجمّع الحج العظيم دعوة الشعوب والتجمّعات الإسلامية إلى وحدة الكلمة ونبذ الخلافات بين المسلمين»^(١١).

ويقول رحمته الله: «إنّ الحجّ أفضل مكان لتعارف الشعوب الإسلامية، حيث يتعرّف المسلمون على إخوانهم وأخواتهم في الدين من شتى أنحاء العالم، ويلتقون مع بعضهم في البيت الذي به كلّ المجتمعات الإسلامية وأتباع إبراهيم الحنيف.. وبنبذهم ما يمايزهم من اللون والقومية.. والأصل.. يعودون إلى أرضهم وبيتهم الأول»^(١٢).

معطيات اجتماعية وسياسية، فعبادات الإسلام عادةً توأم سياسته وتدبيره الاجتماعية.. فصلاة الجمعة -مثلاً، واجتماع الحج والجمعة تؤدّي بالإضافة إلى ما لها من آثار خلقية وعاطفية، إلى نتائج وآثار سياسية، فالإسلام هو الذي استحدثت هذه الاجتماعات وندب الناس إليها وألزمهم ببعضها حتى تعمّم المعرفة الدينية، وتسيطر العواطف الأخوية والتعارف بين الناس.. وتتلاقح الأفكار فتتمو وتنضج، وتبعث المشاكل السياسية والاجتماعية وحلولها.. فيستوجب على المسلمين الذين يحملون رسالة الله تعالى، أن يستوعبوا المحتوى السياسي والاجتماعي للحج إضافة إلى محتواه العبادي»^(١٠).

الحج ووحدة المسلمين

وبما أنّ الوحدة هي الكفيلة لحفظ كيان الأمة وتماسكها، وترسيخ وجودها، وتثبيت أقدامها.. وبأنّ التوحد والترابط، والتآلف والتمازج، هي مصدر القوّة والغلبة، ومنبع القدرة والمنعة.. وأنّ القوّة أمر ضروري لحفظ الشرائع والمبادئ.. والوحدة مصدر

الهوامش :

- (١) أسرار العبادات في الإسلام، عبدالعزيز الأهل : ١٦٦ / دار العلم للملايين.
- (٢) دلالة الحركة في مسيرة الحج / الاستاذ عبد الرحمن حللي، مجلة نهج الإسلام، العدد ٦٧: ٦٢، ١٩٩٦.
- (٣) ثمرات من الحج، مروان شيخو، مجلة نهج الإسلام، العدد ٥٨: ٢٤٨، ١٩٩٢.
- (٤) المصدر نفسه: ٥٩.
- (٥) انظر المجتمع الإسلامي في مواجهة تحديات الحج / د. حسن ضيفة: ٤٥.
- (٦) المصدر نفسه: ٤٦.
- (٧) الحج مؤتمر عبادي سياسي / مجموعة خطابات ونداءات الإمام الخميني، ١: ١٣.
- (٨) من أفكار الإمام الخميني من أجل الوحدة الإسلامية / مجلة المنطلق: ٤.
- (٩) المصدر نفسه: ٥.
- (١٠) المصدر نفسه: ٧.
- (١١) المصدر نفسه: ٨.
- (١٢) الحج مؤتمر عبادي سياسي: ١٠٨ - ١٠٩.